الرجولة

سـعيد بن محمد آل ثابت

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الرُّجولة

الحمد لله وأشكره، وأثني عليه الخير كله؛ خلق فسوى وقدر فهدى، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، أما بعد:

مقدمة في مفهوم الرجولة:

يخلط كثيرون بين مفهومي الذكورة والرجولة، فيعتقدون أن الأولى معبرة عن الآخرة، وهذا خلط واضح في كلا المفهومين؛ فالذكورة ضد الأنوثة، وهي اللفظة التي تبين جنس الإنسان دون التعرض لما يعتنقه من مبادئ أو أخلاق أو قيم، أما الرجولة فتتجلى فيها أخلاقيات ومبادئ الشخص ومدى استعداده لتحمل المسؤوليات المختلفة ومدى التزامه بشريعة الله عزّ وجل والتضحية والبذل من أجلها وفي سبيلها.

الرجولة في اللغة، تطلق على الذكر من بني الإنسان، وهو ضد المرأة. قال في اللسان: الرجل معروف، الذكر من نوع الإنسان خلاف المرأة. وهذا المعنى يفيد المعنى القاصر في الرجولة؛ لأن الرجولة في عرف الناس قديماً وحديثاً تعني معنىً زائداً عن مجرد الذكورة، لذا فإن المربي أياً كان حين يطالب المتربي بأن يكون رجلاً رغم أنه ذكر بالضرورة، فذلك يستلزم معنى إضافي للرجولة، لا يقتصر على الذكورة، ونجد أن العرب وإن أطلقوا الرجولة على الذكورة فإنها قد تأتي ويراد بها معنىً زائداً قد يتحقق في بعض الرجال دون غيرهم، قال في لسان العرب: قال ابن سيده: وقد يكون الرجل صفة (أي: تكون صفة وليست لمجرد الذكورة فقط) يعني بذلك الشدة والكمال، وقال الآبي في نثر الدرر: وقال بعضهم لسعيد بن العاص: عرضت لي إليك حويجة. فقال: اطلب لها رجيلاً. وفي مختصر تاريخ دمشق قال رجل للعباس بن محمد: إني أتيتُك في حاجة صغيرة، فقال: اطلب لها رجلاً صغيراً. وحكى ابن قتيبة قال: قال رجل للعباس بن محمد: إني أتيتك في حُوَيْجة، فقال: اطلب لها رُجَيلاً.

إن الرجولة الحقة تُرَسّخ بعقيدة قوية، وتُهَذّب بتربية صحيحة، وتُنَمّى بقدوةٍ حسنة؛ ثم إن ميزان الرجولة عند البعض هو ميزان ماديٌ فقط، فمن كان جميل المنظر مُكتَمِل القوى كثير المال فهو الرجل الطيب، ولكن ميزان الرجال في شريعة الإسلام من كانت أعماله فاضلة وأخلاقه حسنة، بل عندما نتأمل الرجولة في النصوص الشرعية نجدها مرتبطة بالمسؤولية والتضحية والفداء، وذلك لما بينهما من صلة وثيقة، ولصيقة الصلة كذلك باتباع أمر الله وأمر رسوله وتقديمها على محببات النفس ونوازعها الداخلية، بل ونفيها عمن فرط في اتباع الشريعة أو تعدى حدود الله عز وجل، لذا كان هذا هو المعيار الحقيقي للرجولة في نظر الشريعة.

تأملات في القرون المفضلة:

جلس عمر رضي الله عنه إلى جماعة من أصحابه فقال لهم: تمنوا؛ فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءةٌ ذهباً أنفقه في سبيل الله، وأتصدق، وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً فأنفقه في سبيل الله وأتصدق. ثم قال: تمنوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثلَ أبي عبيدة بنِ الجراح، ومعاذِ بنِ جبلٍ، وسالمٍ مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان، فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله[1]. رحم الله عمر الملهم، إنه لم يتمن فضة ولا ذهبًا، ولا لؤلؤًا ولا جوهرًا، ولكنه تمنى رجالاً، تمنى رجالاً وفق مؤشرات عُمرية، رجالٌ تُفتح على أيديهم كنوز الأرض، وأبواب السماء. لقد كان عمر خبيرًا بكيف تنهض الأمم، كان عمر خبيراً بأن الحضارات العظيمة، والرسالات الحقة، لا تحتاج إلى المعادن المذخورة، والثروات المنشورة، ولكنها تحتاج قبل ذلك إلى الرؤوس المفكِّرة التي تستثمرها، والقلوب الكبيرة التي ترعاها، والعزائم القوية التي تعينها، إنها تحتاج إلى رجال، وليس أيّ رجال.

وحين استمد خالد بن الوليد من خليفة المسلمين أبي بكر رضي الله عنهما لما حاصر الحيرة فأمده بالقعقاع بن عمرو، وقال لا يُهزم جيش فيه مثله، وقال أبو بكر رضي الله عنه عن القعقاع: لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل، وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما أي فارس كان أفرس في القادسية: فكتب إليه أني لم أر مثل القعقاع بن عمرو حمل في يوم ثلاثين حملة يقتل في كل حملة بطلاً"[2]، هلا تأملنا: "خيرُ من ألف رجل"، إنهم عدّوا الرجل بما يحمل من معاني، فانبرى لهم الكيف أولى من الكم، فكانوا هم هم في كل موقف!

ولما أبطأ على عمرو بن العاص فتح مصر كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل وكتب إليه عمر بن الخطاب إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم مقامُ الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، واعلم أن معك اثني عشر ألف رجل، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة[3]. فتأمل أن اعتدادهم بالذكورة والعدد لم يكن حاضراً، وإلا طُمست معالم الإسلام

---

[1] الطبقات: (٤١٣/٣)، المستدرك: (٢٥٢/٣).

[2] الإصابة، لا بن حجر.

[3] كنز العمال.

مبكراً، كانوا يربون على الرجولة، ويمايزون بين أربابها، ولا يعتدون إلا بهم، فكان الرجل كعشرة أو مئة أو ألف..

وَالناسُ أَلفٌ مِنهُـــمُ كَـــواحِـــدٍ *** وَواحِـــدٌ كَالأَلــفِ إِن أَمـــرٌ عَنـــا

سرّ عزِّ الأمةِ وسبب قوّتها ومجدها الرجال، فدولةُ الإسلام الأولى التي شيَّدها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّما قامت على أكتافِ الرجالِ الأشدّاء، ذوي العزمِ والصدقِ والإباء، كالخلفاء الأربعة، وبقية المبشرين العشرة، وغيرهم من نجوم الصحابة والتابعين، أولئكَ الرجالُ ومن شابههم من أفذاذِ الأمةِ في عصورها المتلاحقةِ، الذين أسَّسُوا حياتهم على فهمٍ عميق، وإيمانٍ وثيق، وجدٍ متّواصل، فكان واحدهم كألف، بل إنَّ الأمةَ قد تمرُ بأزمةٍ شديدة، أو منعطفاتٍ خطيرة، فإذا واحدٌ من أبنائها، وفردٌ من رجالاتها، يُمسكُ بزمامها، فيعصمها الله به من شرٍ عظيم، وخطرٍ ماحِق، كما فعل الصدِّيقُ يومَ الردّةِ، وكما فعلَ عُمرُ بن عبد العزيز حين غشَا الظلمُ والجور، وكما فعل ابن حنبلٍ يوم فتنة خلقِ القرآن، وكما فعل صلاح الدين حين استرد بيت المقدس، كلٌّ أولئك وغيرهم كثير، إنَّما هم أفرادٌ وهبهم اللهُ من السماتِ والخصائص ما وهبهم، ثمَّ أدّبوا أنفسهم وربّوها، وأكسبُوها من خصالِ الجدِّ والعزم، والصدق والصبر ما أهَّلهم للقيادة ومن ثمَّ التأثير والتغيير، ولأجل ذلك فإنَّهُ لا عجب أن يمرَّ بالأمّةِ أزماتٌ ومحنٌ وشدائدُ، ولكنَّ العجبَ أن لا يخرجَ من أبنائها من يصُدَّ عنها، العجبُ أن تنجحَ مشاريعُ الأعداءِ في تشتيتِ همِ رجال الأمّة، وفي تسطيحِ اهتماماتِ شبابها، فلا يعرفون قيمةَ ذواتهم، ولا يدركون أدوارهم، فتضيعُ حياتُهم في الركضِ وراءَ المصالحِ الشخصية، أو خلفَ الشهوات الدنيّة، وتذرف دموعهم بسبب ضياع أمجاد كروية، ولتبقى قضايا الأمةِ الأساسية المصيرية لا تُمنح إلاَّ القليل من المواهب المتواضعة، والأوقاتِ اليسيرة المتقطعة، والفكرِ السطحي المكدُود.

إن أكمل الناس وأجمعهم لصفات الرجولة، هم صفوة الصفوة، وخيرة الخيرة الذين اختارهم الله تعالى على علم على العالمين، هم الأنبياء المعصومون عليهم الصلاة والسلام؛ لذلك وصفهم الله بالرجولة فقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم} [يوسف: ١٠٩]. وتأمل ما قاله الله عن لوط عليه السلام وقومه: {وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد} [هود: ٧٨]، فلو كان في القوم رجل رشيد، لحصرهم عن مشين العادات وكفهم عن خوارم المروءة، لذا استدعى معنى الرجولة في واحد، ولم يستدع الجمع الأكبر!

تساؤلات عن معايير الرجولة:

المقصد هنا أن ثمة معايير رسخت عند البعض بمجرد وجودها يتميز الرجل عن غيره، والحق هو خلاف ذلك بالدليل والتعليل، وإليك البيان:

- هل الرجولة محصورة في كِبر السن وتقدم العمر؟

رُوي أن عبدالله بن الزبير كان يلعب مع الصبيان، فمرّ عُمر بن الخطاب وهو يومئذ الخليفة، ففروا، ووقف ابن الزبير فقال له عمر: "مالك لم تفر معهم؟"، فقال: "لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك"![4] وروي أن وفداً من المهنئين لعمر بن عبدالعزيز بالخلافة من أهل الحجاز ومعهم غلام صغير وكان الوفد قد اختار الغلام ليتكلم عنهم، وهو أصغرهم، فلما بدأ بالكلام قال له عمر: مهلاً يا غلام ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، المرء بأصغريه: قلبِهِ ولسانه، فإذا منح اللهُ العبدَ لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد استجاد له الحلية (استحق أن يتكلم) يا أمير المؤمنين لو كان التقدم بالسن لكان في الأمة من هو أسن منك (أي أحق بمجلسك هذا ممن هو أكبر منك سناً) فقال عمر: تحدث يا غلام، فتحدث وأجاد فأعجب به وشجعه على ذلك، وزاده ثقة بنفسه وجراءة، فقال له: عظنا يا غلام وأوجز، فوعظه[5]... أولئك لعمري هم الصغار الكبار، وفي دنيانا ما أكثر الكبار الصغار؟

فالرجولة ليست بالسن المتقدمة؛ فكم من شيخ طاعن في السن وسلوكُه وتصرفاته في سن الطفولة، يفرح بالتافه، ويبكي على الحقير، ويتطلع إلى ما ليس له، ويقبض على ما في يده قبض الشحيح حتى لا يشركه غيره؛ فهو طفل صغير، ولكنه ذو بنيان ولحية وشارب. ولو كانت الرجولة محصورة في عمر معين لما اُعتد بكثير من قامات اليوم والأمس، ولما كانت الأمم لتقوم لولا أنها اعترفت بقدرات شبابها، روى البخاري ومسلم وغيرهما أن عبدالرحمن بن عوف قال: "إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: "يا عم، أريني أبا جهل"، فقلت له: "يا بن أخي، ما تصنع به؟"، قال: "عاهدتُ الله إن رأيتُه أن أقتله أو أموت دونه"، وقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله، قال عبدالرحمن: "فما سرني أنني بين رجلين مكانهما، فأشرتُ لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين، فضرباه حتى قتلاه"، وهما ابنا عفراء رضي الله عنهم أجمعين. إذاً الرجولة

---

[4] تاريخ دمشق، لابن عساكر.

[5] مروج الذهب، للمسعودي.

الحقة هي استجماع مجموع صفات تقوم في الرجل، فيشار إليه بالبنان أنه رجل، بغض النظر عن عمره وصورته، هذا عمير بن أبي وقاص جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو فتى صغير في بدر يريد أن يجيزه النبي صلى الله عليه وسلم فردَّه؛ لأنه لم يبلغ في العمر والصورة، لكنه بلغ في النفس والعقل، بكى عمير بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام فأجازه النبي عليه الصلاة والسلام فعقد له السيف فقاتل، وليس في وجهه شعرة[٦]. ودونك رافع بن خديج جاء النبي عليه الصلاة والسلام في أُحد وهو دون خمس عشرة سنة، فلم يجزه النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ يجادل وينافح ويكافح قال: يا رسول الله "أتردني وإني لرامٍ أرمي كما يرمي الشيوخ، فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم، فرآه سمرة بن جندب، وكان قد ردَّه النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله أجزت رافع فأجزني؟ قال: "تصارعا فتصارعا فصرع سُمرةُ رافعًا، فأجازهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٧]. فليت شعري أي تنافس يعدل هذا التنافس، وأي نفوس تشعر بالنقص إلا لم تقدم ذواتها قرباناً بين يدي خالقها، تجيبك المعاني لا المباني، فليس من الضرورة أن يكون الرجل ذا لحية كثيفة عريض المنكبين، بل إذا قامت فيه صفات الرجولة أغنى ذلك كله.

- هل الرجولة فيمن استوى جسداً واكتمل شكلاً، وعظم بُنية؟

وليست الرجولة أيضاً ببسطة الجسم وطولِ القامة وقوةِ البنية، فقد قال الله عن طائفة من المنافقين: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ}، ومع هذا فهم {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون:٤]، وفي الحديث مرفوعاً: "يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرءوا إن شئتم قوله تعالى: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف:١٠٥]"متفق عليه. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أمر النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود فصعد على شجرةٍ فنظر أصحابه إلى ساق عبدالله حين صعد الشجرة، فضحكوا من حموشة ساقيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَمَ تضحكون؟ لَرِجلُ عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد" رواه أحمد.

فالرجال لا يقاسون بضخامة أجسادهم وبهاء صورهم، بل باستقامة نفوسهم ونضج عقولهم، وقد قيل:

يا متعب الجسم كم تسعى لراحـــته ... أتعبت جسمك فيما فيه خسران

أقبل على الروح فاستكمل فضائلهـــا ... فأنت بالـــروح لا بالجسم إنسان

- فهل من كثر ماله، وزان جاهه يكون رجلاً؟

---

[٦] أسد الغابة، لابن الأثير.

[٧] تاريخ الطبري.

مرّ رجلٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله: "ما تقولون في هذا؟" قالوا: هذا حريٌ إن خَطَب أن يُنْكح، وإن شَفَع أن يُشَفّع، وإن قال أن يُسْتمع له، قال ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: "ما تقولون في هذا؟" قالوا: هذا حريٌ إن خَطَب ألاّ يُنْكح، وإن شَفَع ألاّ يُشَفّع، وإن قال أن لا يُسْتمع له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا" رواه البخاري. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رب أشعث مدفوع في الأبواب لو أقسم على الله لأبره" راوه مسلم.

إذن ليس المال ولا الجاه مؤشراً لتحقيق الرجولة، قد يكون الرجل رجلاً وهو مدفوع بالأبواب، وسيده على الأريكة!

- فكيف لمتصلب في الرأي، شديدٍ في الخُلق، ومسيره المحفوف بالجلبة، ألا يكون رجلاً؟ تأمل هذه النصوص وهي كافية للإجابة، يقول الله تعالى: {ولَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١٨)وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(١٩)} [لقمان]. وقال سبحانه: {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان:٦٣]. وقال سبحانه: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٥]. وقال جل وعلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ..} [المائدة:٥٤]. وقال تبارك وتعالى: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [الإسراء:٥٣]. فلا ريب أن ما يراه البعض من كل تلك الصفات المتلبسة بالشدة والقسوة والغلظة رجولة، بل هي بعيدة كل البعد عن معنى الرجولة المراد، وبل وتخالف مقصد حسن الخلق الذي جاء الإسلام ليؤكد مكارمه، والنصوص في ذلك أكثر من أن تعد، وفي المقابل ففي الشدة والقسوة ما يكون ظلماً وعدواناً في الدنيا، وعذاب أليم جزاءً وفاقاً في الآخرة، والعياذ بالله.

وبعد هذه التساؤلات التي ربما صححت شيئاً من المفاهيم الخاطئة في معنى الرجولة، إلا أن من المهم التأكيد (وإن كان هذا المعنى واضحاً) على أن الرجولة لا تتعارض مع صاحب المال أو الجاه، أو كبير السن، وغيرها، بل الحديث عن اقتصارها على جزء دون الجزء الأهم، فلو اجتمع العلم مع حسن الصورة والبهاء، لكان ذلك بلا شك أعزّ وأثمر، وتأمل قول الحق: {قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٤٧]. قال ابن كثير: {وزاده بسطة

في العلم والجسم} أي: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبرا في الحرب ومعرفة بها أي: أتم علما وقامة منكم. ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه[٨]، وفي الحديث مرفوعاً: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف احرِص على ما ينفعُكَ، واستعِن باللَّهِ ولا تعجزْ "رواه مسلم، والقُوَّةُ المحمودةُ تَحتمِل وُجوهًا عديدةً؛ فمنها القُوَّة في الطَّاعةِ لشِدَّة البَدنِ وصلابتِه، فيكون أكثرَ عملًا، وأطولَ قيامًا، وأكثر صيامًا وجهادًا وحجًّا. ومِنها القوَّة في عَزيمة النَّفسِ؛ فيكون أقدمَ على العَدوِّ في الجِهاد وأشدَّ عزيمةً في تغييرِ المنكَر والصَّبر على إيذاءِ العدوِّ واحتمالِ المكروهِ والمشاقِّ في ذات الله. ومنها القوَّةُ بالمالِ والغِنَى؛ فيكون أكثرَ نفقةً في الخير وأقلَّ ميلًا إلى طلب الدُّنيا، والحِرص على جمْعِ شيءٍ فيها. وغير ذلك مِن وجوهِ القُوَّة.

فمن هم الرجال إذن (معايير الرجولة)؟

من عدل الله أن صفات الكمال كسبية وليست فطرية، وأنها مستطاعة، وليست محالة، وبالتالي في مقدور كل إنسان أن يكتسب المروءات ومكارم الأخلاق، ومعايير الرجولة، والتي منها:

- الرجال هم أهل بيوت الله، قال سبحانه: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ(٣٧)} [النور]، في بيوت الله لأنها تعلقت قلوبهم بها لما يُقام فيها، وأولاها الصلاة، لذلك جاء الوصف في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: "ورجل قلبه معلق بالمساجد" رواه البخاري ومسلم، وقال سبحانه: {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة:١٠٨]، إذن راحة أرواحهم وهناءة أنفسهم حين يكونوا في بيوت الله، لا يتأخرون عن الصفوف الأولى، ولا يتقاعسون عن الصلوات، يأتون ولو كانوا هزيلي الأجساد ضعيفي البُنى معقاي الحركة، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: "مَن سرَّهُ أن يَلقى اللَّهَ عزَّ وجلَّ غدًا مسلِمًا، فليُحافِظ علَى هؤلاءِ الصَّلواتِ المَكْتوباتِ حيثُ يُنادى بِهِنَّ، فإنَّهنَّ مِن سُنَنِ الهدى، وإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ شرَعَ لنبيِّكم سُنَنَ الهدي، وما منكُم إلَّا ولَهُ مسجدٌ في بيتِهِ، ولَو صلَّيتُمْ في بيوتِكُم، كما يصلِّي هذا المتخلِّفُ في بيتِهِ، لترَكْتُمْ سنَّةَ نبيِّكم، ولو ترَكْتُمْ سنَّةَ نبيِّكم لضللتُمْ، ولقد رأيتُني وما يَتخلَّفُ عَنها إلَّا مُنافقٌ مَعلومٌ نفاقُهُ، ولقَد رأيتُ الرَّجُلَ يهادى بينَ الرَّجُلَيْنِ حتَّى يُقامَ في الصَّفِّ" رواه أحمد. فكانوا يأتون إلى المسجد ولو حبوًا، يُقام الرجل فيهم بين

[٨] تفسير ابن كثير.

الرجلين يتكئ على هذا مرة وعلى هذا مرة حتى يقوم في صف الصلاة. راحة أرواحهم كانت في الصلاة في المساجد؛ وهذا سيّد الرجال صلى الله عليه وسلم يقوم إلى الصلاة فيغشى عليه في صلاته في أخريات حياته، فيهرقون عليه الماء، فيقوم ثم يصيبه التعب، فيغشى عليه المفدى بالنفس والمال والولد صلى الله عليه وسلم، ثم يغشى عليه ثم يقوم ليصلي فيغشى عليه ثم يأمر في الثالثة بأبي بكر ليصلي بالناس. وتأمل هذا المشهد النبوي المهيب تصفه عائشة رضي الله عنه، وكيف أن الصحابة استلهموا قدر الصلاة من فعله عليه الصلاة والسلام قبل قوله، روى البخاري ومسلم أن عبيد الله سأل عائشةَ فقال: ألا تحدثيني عن مرضِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قالتْ: بلى، ثَقُل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أصلَّى الناسُ. قُلْنا: لا، هم ينتَظِرونك، قال: ضَعوا لي ماءً في المِخضَبِ. قالتْ: ففعلْنا، فاغتسَل، فذهَب لِيَنوءَ فأُغمِي عليه، ثم أفاق، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أصلَّى الناسُ. قُلْنا: لا، هم ينتَظِرونك يا رسولَ اللهِ، قال: ضَعوا لي ماءً في المِخضَبِ. قالتْ: فقعَد فاغتَسَل، ثم ذهَب لِيَنوءَ فأُغمِي عليه، ثم أفاق فقال: أصلَّى الناسُ. قُلْنا: لا، هم ينتَظِرونك يا رسولَ اللهِ، قال: ضَعوا لي ماءً في المِخضَبِ. فقعَد فاغتَسَل، ثم ذهَب لِيَنوءَ فأُغمِي عليه، ثم أفاق فقال: أصلَّى الناسُ. قُلْنا: لا، هم ينتَظِرونك يا رسولَ اللهِ، والناسُ عُكوفٌ في المسجِدِ، ينتَظِرون النبيَّ عليه السلامُ لصلاةِ العشاءِ الآخِرةِ، فأرسَل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أبي بكرٍ: بأن يصليَ بالناسِ، فأتاه الرسولُ فقال: إن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمرُك أن تصليَ بالناسِ، فقال أبو بكرٍ، وكان رجلًا رقيقًا: يا عُمرُ صلِّ بالناسِ، فقال له عُمرُ: أنت أحقُّ بذلك، فصلَّى أبو بكرٍ تلك الأيامَ، ثم إن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجَد من نفسِه خِفَّةً، فخرَج بين رجلينِ، أحدُهما العباسُ، لصلاةِ الظهرِ، وأبو بكرٍ يصلي بالناسِ، فلما رآه أبو بكرٍ ذهَب ليتأخَّرَ، فأومَأ إليه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن لا يتأخَّرَ، قال: أَجلِساني إلى جَنبِه. فأجلَساه إلى جنبِ أبي بكرٍ، قال: فجعَل أبو بكرٍ يصلي وهو يأتَمُّ بصلاةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والناسُ بصلاةِ أبي بكرٍ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قاعدٌ"، وهذا المشهد حلقة من سلسلة من المشاهد الشاهدة على حضور الصلاة وعظمة مكانة الجماعة والمسجد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك لا تعجب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين طعنه الشقي أبو لؤلؤة المجوسي، فتناول عمر يد عبدالرحمن بن عوف؛ فقدَّمه للصلاة بالنَّاس، فصلَّى بهم صلاةً خفيفةً، وحُمِلَ عمر إلى بيته وقد غلبه النَزْف حتى غُشيَ عليه، فلما أسفر الصُّبح استيقظ فقال: أَصَلَّى النَّاس؟ قالوا له: نعم. قال: لا إسلام لمن ترك الصَّلاة. ثم توضَّأ وصلَّى[9]، ولا تعجب من عباد بن بشر يقف في

[9] الطبقات (٣/ ٢٦٣)، والفتح (٧/ ٧٩).

ثغر من ثغور الإسلام، ثم يقوم ليصلي فيصيبه سهم فلا يقطع صلاته، ويصيبه الثاني فلا يقطع صلاته، ويكمل صلاته حتى أصابه السهم الثالث ثم أنجز صلاته سريعاً خوفاً على الثغر الذي ائتمنه عليه رسول الله[١٠]، كانوا يصلون بجراحاتهم، وقد جاء في الخبر الصحيح: "مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ"رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

إن الذين لا يصلون ولا يشهدون الجمعة والجماعات ليراجعوا رجولتهم بالمعنى المراد، الرجال هم لله كما يريد، وفي محاب الرحمن كما يحب سبحانه لا كما يستجيز العبد لنفسه.

- الرجل هو الذي أخضع ذاته ونفسه لمنهج الله عز وجل فهماً وسلوكاً، فالله عز وجل حاضرٌ في يومه وليلته ولم تشغله دنياه عن آخرته: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النـــــور:٣٧]. إذن الرجولة: صمودٌ أمام الملهيات، واستعلاء على المغريات، تعظيماً للرقيب، وحذراً من يوم عصيب.
- ومن صفاتهم القوة في الحق، كان النبي صلى الله عليه وسلم يتطلع إلى الرجولة التي تناصره وتعتز بها دعوته ويسألها ربه فيقول: "اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر ابن الخطاب"، قال الراوي: "وكان أحبهما إليه عمر" رواه الترمذي. لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتطلع إلى معالم الرجولة التي تؤثر في نشر الدعوة وإعزاز الإسلام، فكان إسلام عمر حدثاً كبيراً وَوُجدت رجولته في اللحظة الأولى من إسلامه، فبعد أن كان المسلمون لا يجرؤون على الجهر بدينهم جهروا به، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "مازلنا أعزّة منذ أسلم عمر" رواه البخاري. فلم تكن رجولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوة بدنه ولا في فروسيته، ففي قريش من هو أقوى منه، ولكن رجولته كانت في إيمانه القوي ونفسه الكبيرة التي تبعث على التقدير والإكبار.
- الرجولةُ رأيٌ سديد وكلمة طيبة ومروءةٌ وشهامةٌ وتعاون وتضامن، الرجولة تحمُّلُ المسؤولية في الذب عن التوحيد، والنصح لله وفي الله، قال الله تعالى: {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} [القصص:٢٠]. وقال سبحانه: {وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يـــــس: ٢٠]، وفي سياق هاتين القصتين تجد أن النص يُبرز كلمة (رجل) وهي تعني شخصاً مفرداً، فهو رجل واحد ينقذ الموقف بخصائصه الذاتية

[١٠] أصل الحديث عند أحمد وأبي داود بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه.

والإيمانية، ولا يستوحش من غربته بين أهله أو تفرده في طبقته، فيحيط موسى علماً بالمؤامرة الدنيئة التي يحيكها القصر الفرعوني للقضاء عليه وعلى دعوته، ويقترح عليه الحل، وهو الخروج من قريته والفرار بنفسه، وفي قصة "يس" يعلن أمام الملأ نصرة المرسلين ويدعو إلى اتباعهم متحدياً بذلك رؤوس الضلالة صارخاً به في وجه الجمهور التابع. فالرجولة: قوة في القول، وصدعٌ بالحق، وتحذير من المخالفة لأمر الله، مع حرص وفطنة، قال الله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ} [غافر:٢٨]، فتأمل: {يكتم إيمانه}.

- الرجل الحق: يَصدُق في عهده، ويفي بوعده، ويثبت على الطريق، قال الله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب:٢٣].

عن أنس رضي الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله! غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني: أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني: المشركين) ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ! الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا فيه بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [الأحزاب:٢٣] إلى آخر الآية، وقال: إن أخته وهي تسمى الربيع كسرت ثنية امرأة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص فقال أنس: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فرضوا بالأرش وتركوا القصاص، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره" رواه البخاري. فها هم الرجال لا يغيرون ولا يبدلون، وعلى دين الله ثابتون، مهما تلاطمت الأمواج، وأظلمت السماء!

- ومن صفاتهم: قوة الإرادة وضبط النفس، إن أول ميدان تتجلى فيه الرجولة أن ينتصر الإنسان على نفسه الأمارة بالسوء. إن الرجل هو الذي تدعوه نفسه للمعصية فيأبى، وتتحرك فيه الشهوة فيكبح جماحها، وتبدو أمامه الفتنة فلا يستجيب لها. وأولى الناس بالثناء شاب نشأ في طاعة حيث تدعو الصبوة أترابه وأقرانه إلى مقارفة السوء والبحث عن الرذيلة، فلا ينساق ولا ينهزم، ورجل تهيأت له أبواب المعصية التي يتسابق الناس إلى فتحها أو كسرها، فتدعوه امرأة ذات منصب وجمال فيقول: إني أخاف

الله. قد يظن البعض أن هؤلاء لا شهوة تؤرقهم ولا فتنة تحركهم، ولا خمول يقعسهم، لا وتالله بل لهيب الشهوات تستعر عندهم كغيرهم، وأمواج الفتن هم ليسوا بمعزل عنها، لكنهم ألجموا أنفسهم بلجام التقوى، واستعانوا بالله على الصالحات ودفع الفتن والمنكرات.

الرجال يتعالون على رغباتهم، وتتسامى نفوسهم عن شهواتهم، والإمعة الذي يتبع شهوته ويسير مع رغبته لا يمكن أن يوصف بأنه رجل {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(٤١)} [النازعات]، ولذلك فإن من سادات الرجال يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، دعته امرأة العزيز ذات المنصب والجمال والمكان الآمن، {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف:٢٣]. كما يتعالون على شهوة الفرج يتعالون حتى على الشهوات الأخرى كشهوة حب المال والاستكثار {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النور:٣٧].

إن ميادين الانتصار تبدأ بالانتصار على دواعي الرذيلة وشهوات النفس، وأول ميادين الهزيمة استطالة الطريق والجزع دون الصبر، لأنه لم يطق أن يقول لنفسه: لا.

فأين الرجال هنا لينتصروا على أنفسهم؟ أين الرجال الذين يقودون أنفسهم ولا تقودهم ويأمرونها ولا تأمرهم؟ إن أولئك الذين يُهزمون في المعركة مع النفس أحرى بأن يهزموا في المعركة الكبرى مع العدو الغاشم، ولن تنتصر أمة يقودها نحو الميدان مهزومون. وهاهم قادة المسلمين الذي سطروا الملاحم كان حاديهم نحو النصر على العدو الانتصار على الذات والاستعلاء على الشهوات، فها هو عبد الرحمن الداخل لما نزل من البحر إلى بر الأندلس وقد قدم إليه خمر ليشرب فأبى وقال: إني محتاج لما يزيد عقلي لا إلى ما ينقصه، فعرف الناس من ذلك قدره، ثم أهديت له جارية جميلة فنظر إليها وقال: إن هذه لمن القلب والعين بمكان، وإن أنا لهوت عنها بمهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن لهوت بها عما أطلبه ظلمت مهمتي، فلا حاجة لي بها الآن[١١]، فالرجولة عزيمة وإرادة في النفس قبل أن تكون عملاً ظاهراً. وكما أن الرجال ينتصرون على أنفسهم حين تدعوهم للهوى والصبابة، فهم ينتصرون عليها حين تدعوهم للغضب والحمية في غير ما يرضي الرحمن. عن رجل شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قال:..قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما الصرعة؟" قالوا: الصريع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصرعة كل الصرعة الرجل يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه"

[١١] مباهج الأندلس، لمحمد البشر.

رواه أحمد، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب". إن الاستجابة للاستفزاز والزمجرة والانفعال عند الغضب ورمي الشتائم كالصاعقة على القريب والبعيد أمر يجيده الكثير، لكن الذي لا يجيده إلا الرجال الحلم حين تطيش عقول السفهاء والعفو حين ينتقم الأشداء، ولذا أثنى القرآن على طائفة من المتقين ووعدهم بالمغفرة والجنان الواسعة فقال: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٣)الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٣٤)وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٣٥)أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(١٣٦)} [آل عمران].والإحسان إلى من يسيء منزلة لا يطيقها كل الناس إنما يطيقها الرجال: {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤)وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٣٥)} [فصلت]. وقد يسوغ للإنسان أن يأخذ حقه وينتصر ممن يظلمه لكن العفو والتنازل عن الحق من شيم الذين كملت رجولتهم ولا يطيقه إلا أهل العزائم: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠)وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ(٤١)إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢)وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ(٤٣)} [الشورى].

- ومن صفات الرجال: القوامة على الأسرة، يقول سبحانه: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء: ٣٤]، ولا يقدح في رجولة الرجل أن يعين أهله، فعائشة رضي الله عنها سئلت عن فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته فقالت: كان يكونُ في مهنةِ أهلِه تعني خدمةَ أهلِه فإذا حضرتِ الصلاةُ خرجَ إلى الصلاةِ. رواه البخاري. ولا يقدح في رجولة الرجل أن يلاطفهنّ أو أن يمازحهنّ، تقول عائشة رضي الله عنها: سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته، فلما حملت اللحم (أي بدت عليّ السمنة) سابقني فسبقني فقال: "هذه بتلك" رواه ابن ماجه وصححه الألباني. وحين سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أحد أصحابه وهو عمرو بن العاص عن أحب الناس إليه قال: "عائشة" رواه البخاري، وها هو صلى الله عليه وسلم يعطيها حظها من اللعب واللهو فتقول: والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول

الله صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللعب. رواه مسلم.

لكن لينه صلى الله عليه وسلم وحبه لزوجه لم يكن دافعاً له أن يقرها على أمر يسخط الله، فطاعة الله أولى ما تؤسس عليه البيوت، فها هي تحكي ما رآه صلى الله عليه وسلم وما فعله حين رأى أمراً منكراً تقول رضي الله عنها: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل فلما رآه هتكه وتلون وجهه وقال: عائشة ! أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله، قالت عائشة: فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين. رواه البخاري ومسلم. إذن القوامة بهذا المعنى تنحاز للرجولة بشكلها الصحيح، إذ المشاركة والرحمة والشفقة، والحرص والوقاية.

ومن القوامة التي تفرق الرجل عن غيره هي نار الغيرة التي تحول بين كل ذئب وعرض صاحبها، وتحرق كل من مسهم بسوء، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم قالت:.. وكُنتُ أَنقُلُ النَّوى مِن أَرضِ الزُّبَيرِ الَّتي أَقطَعَه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم عَلى رَأسي، وَهي مِنِّي عَلى ثُلُثي فَرسخٍ، فجِئتُ يومًا وَالنَّوى عَلى رَأسي، فلَقيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وَمَعه نَفرٌ مِنَ الأَنصارِ، فَدَعاني، ثُمَّ قال: إخ إخ؛ لِيحمِلَني خَلفَه، فَاستَحييْتُ أنْ أَسيرَ معَ الرِّجالِ، وذَكَرتُ الزُّبيرَ وغَيرَتَه، وَكان أَغْيَرَ النَّاسِ، فعَرَفَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنِّي قدِ استَحييْتُ، فَمضى، فجِئتُ الزُّبيرَ فقُلتُ: لَقيَني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وَعلى رَأسي النَّوى، وَمعَه نَفرٌ مِن أَصحابِه، فأَناخ لِأَركَبَ، فَاستَحييْتُ مِنه وَعرَفْتُ غَيرَتَك، فَقال: واللهِ لَحملُكِ النَّوى كان أشدَّ عليَّ مِن رُكوبِك مَعه! قالَت: حتَّى أَرسلَ إليَّ أبو بكرٍ بَعدَ ذلكَ خادمًا يَكفيني سياسَةَ الفَرَسِ، فَكأنَّما أَعتَقَني. رواه البخاري. فيا لله كم حفظت هذه الغيرة من بيت، وكم نفّرت من فاجر، وكم آوت امرأة إلى كنفها، وأما ضعفها وعدمها، فهي دمار البيوت، واستلاب هويتها، ومن ثم اندلاق أقتابها عند من لا خلاق له، فالغيرة موقد أساسي في صدر كل رجل، يشتعل به ليحوط أهله ويكفيهم حاجتهم!

- الرجولة: أن تكون لله كما يحب فيكون لك كما تريد، أن تنفض فراش الدفء فتصفّ قدميك لله في جوف الليل حيث لا يراك إلا هو، عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نعم الرجل عبد الله؛ لو كان يصلي من الليل" قال سالم: "فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً" رواه البخاري ومسلم.

- الرجولة: هي النجدة وتفريج الكربة وعدم الإرجاف، والإبقاء على سلامة النفوس وطمأنتها: قال سبحانه: {قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين} [المائدة: ٢٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع" رواه أبو داود. وتأمل موسى عليه السلام لما وصل مدين غريباً خائفاً بعد أن خرج خائفاً طريداً {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)} [القصص]، وكان القدوة للأمة في الشجاعة رسولها صلى الله عليه وسلم، أخرج الشيخان واللفظ لـــمسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لـــأبي طلحة رضي الله عنه وفي عنقه السيف وهو يقول: "لن تراعوا.. لن تراعوا". ولما أصاب الصحابة يوم حُنين من الأذى والهزيمة ما أصابهم، فرَّ بعضهم من أرض المعركة، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يفر، فلقد كان على بغلته وأبو سفيان بن الحارث آخذٌ بلجامها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول بصوت عالٍ: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب" رواه البخاري ومسلم.
- الرجولة: نشر الفضيلة، والعطاء بالعلم والنفس والمال، إن الرجال الذين تتحقق فيهم سمات الرجولة الحقة حين يستضيئون بنور الإيمان يكونوا مصابيح مضيئة لهم ولغيرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس؟ قال: "أتقاهم لله"، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: "فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله"، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: "فعن معادن العرب تسألونني! الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" رواه البخاري، وتأمل قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابن عمر رضي الله عنه: "أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس" رواه الطبراني في الكبير وحسنه الألباني، وفي الحديث مرفوعاً: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" متفق عليه، إن خير معادن الناس من كان له أثر طيب وسيرة حسنة بالعلم النافع، والدعوة الصافية، والإنفاق السخي.

وقد قيل في من هذه سجيته:

إذا ما مات ذو علم وتقوى *** فقد ثُلِمت من الإسلام ثُلمة

وموتُ الحاكم العدلِ المولّى *** بحكم الشرع منقصةٌ ونقمة

وموت العابدِ القــوّام ليــلاً *** يُناجي ربّه في كــل ظلمــة

وموتُ فتىً كثير الجود محــلٌ *** فإن بقاءه خصــبٌ ونعمــة

وموتُ الفارس الضرغام هدمٌ *** فكم شهِدتْ له بالنصر عزمة

فحسبُك خمسةٌ يُبكى عليهم *** وباقي الناس تخفيف ورحمــة

وباقي الناس هم همــجٌ رعــاعٌ ** وفي إيجادِهــم لله حكمــة

وهنا رسالة مهمة حين حديثنا عن معادن الناس أجدها مناسبة في هذا المقام لكل مربٍ..

أيها المربي الكريم.. اعتنِ بمعادن الناس، (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) والذين سادوا في حياة الضلال يسودون حين يمن الله عليهم بالهداية، فحري بالمصلحين أن يعنوا بدعوة من تعلو لديه صفات الرجولة وتسود عنده سمات الأكارم، فحين يهتدي هؤلاء يؤدون ما لا يؤديه غيرهم. ومن ذلك: توجيه من يملك مواهب وطاقات صرفت في السوء والفساد لمسارات الخير والإصلاح، وحري ببناة الرجولة في المجتمع أن يسعوا إلى ترشيد رجولة هؤلاء، وقد كان للسلف رضوان الله عليهم جهد في ذلك، فها هو زاذان أبو عمر الكندي الضرير أحد العلماء الكبار ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم روى عن عمر وعلي وغيره من الصحابة وكان ثقة صادقاً روى جماعة أحاديث، قال ابن عدي: تاب على يد ابن مسعود، قال حاكياً عن توبته رحمه الله: كنت غلاماً حسن الصوت.. جيد الضرب بالطنبور فكنت مع صاحب لي وعندنا نبيذ وأنا أغنيهم فمر ابن مسعود فدخل فضرب الباطية فبددها وكسر الطنبور ثم قال: لو كان ما يسمع من حسن صوتك يا غلام بالقرآن كنت أنت أنت، ثم مضى، فقلت لأصحابي: من هذا؟ قالوا: هذا ابن مسعود. فألقى في نفسي التوبة، فسعيت أبكي وأخذت بثوبه فأقبل علي فاعتنقني وبكى وقال: مرحباً بمن أحبه الله، اجلس ثم دخل وأخرج لي تمراً، قال زبيد: رأيت زاذان يصلي كأنه جذع[١٢].

---

[١٢] سير أعلام النبلاء، للذهبي.

التربية على الرجولة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً". رواه البخاري من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قال السعدي معلقاً على هذا الحديث: (هذا الحديث مشتمل على خبر صادق وإرشاد نافع، أما الخبر فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن النقص شامل لأكثر الناس، وأن الكاملَ أو المقارب الكمال فيهم قليل، كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ تستكثرها، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب والذهاب والإياب لم تكد تجدها. وهكذا الناسُ كثيرٌ، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامةِ، أو الولاياتِ الكبارِ أو الصغارِ. أو الوظائفِ المهمة لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياماً صالحاً. وهذا هو الواقع فإن الإنسان ظلوم جهول والظلم والجهل سبب للنقائص وهي مانعة من الكمال والتكميل. أما الإرشاد النافع فقال: فإن مضمون هذا الخبر إرشاد منه صلى الله عليه وسلم إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يَصْلُحُون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.. إلى أن قال: فالوظائف الدينية والدنيوية، والأعمال الكلية لا بد للناس منها ولا تتم مصلحتهم إلا بها وهي لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف بحسب الاستطاعة...)[١٣].

إن الرجولة قوة نفسية تحمل صاحبها على معالي الأمور، وتبعده عن سفسافها، يعرف واجبه نحو نفسه، ونحو ربه، ونحو بيته ودينه وأمته، وإنّ مما يعاني منه كثير من الناس كما قدمنا هو تراجع معاني الرجولة، فكيف نصنع الرجال؟ وكيف نبني ونشيّد معالم الرّجولة في أعيان الزمن القادم؟

- المعايشة معهم، وعدم الاكتفاء بالتوجيه المباشر، أو إيكال المهمة لأحد، وسنرى أن جلّ طرائق بناء الرجال كما سيأتي لم تؤت ثمارها إلا عبر قنطرة المعايشة، إذ المشاهدة أكثر عبرة وأعمق تأثير، وبها يستطيع المربي أن يعزز السلوكيات النبيلة، ويعدل الخاطئة، ويقوّم ما يحتاج التقويم، وتأمل قول الحق تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ:[البقرة:١٢٧]، وفيه دلالة على معايشة الأب وهو إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل عليه السلام وإشراكه معه في المهام التي يقوم بها، وبالتالي فالمعايشة أولى عوامل التأثير الحقيقي، لكنها تستوجب صلاحية المربي للمعايشة، وأن يكون ذو صفات فائقة القدرات، ولا تحتمل كثرة الأخطاء التي تربك المتربي، وتجعله لا يستطيع الربط بين القول والفعل، قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده: ليكن أول

---

[١٣] بهجة قلوب الأبرار، للسعدي.

إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك؛ فإن عيونهم معقودة بك؛ فالحسن عندهم ما صنعتَ، والقبيح عندهم ما تركتَ، وعلِّمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روِّهم من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه، ولا تُخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكِموه؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم، وعَلِّمهم سُنَن الحكماء، وجَنِّبهم محادثة النِّساء، ولا تَتّكَل على عُذْر منّي لك، فقد اتكلتُ على كِفاية منك[١٤].

- تعليمه العلم والأدب، ولا يُستصغر في ذلك، روى البخاري وغيره عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قيل إنّه عبد الرحمن بن عوف: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ. قَالَ فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، وَدَعَانِى مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِى يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ مِنِّى، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ} حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِى. وْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئاً. فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَكَذَاكَ تَقُولُ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَمَا تَقُولُ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ. قال ابن عيينة: الغلام أستاذ إذا كان ثقة[١٥]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن العلم ليس عن حداثة السن ولا قدمه[١٦]، ولكن الله يضعه حيث يشاء. وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت أُقرِئ رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف، قال ابن الجوزي في كشف المشكل: فيه تنبيه على أخذ العلم من أهله وإن صغرت أسنانهم أو قلّت أقدارهم. وقد كان حكيم بن حزام يقرأ على معاذ بن جبل فقيل له: تقرأ على هذا الغلام الخزرجي؟ فقال: إنما أهلكنا التكبرُ[١٧].

قال ابن مفلح: والأوْلى أن لا يحدِّث حتى يتم له أربعون سنة إلا أن يُحتاج إليه؛ فقد حدَّث بُندار وله ثلاث عشرة سنة، وحدث البخاري وما في وجهه شعرة. وقد قال سمرة بن جندب: لقد كنت على عهد

---

[١٤] العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي.

[١٥] الآداب الشرعية، لابن مفلح.

[١٦] كنز العمال، للمتقي الهندي.

[١٧] الآداب الشرعية، لابن مفلح.

رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً فكنت أحفظ عنه؛ فما يمنعني من القول إلا أنَّ هاهنا رجالاً هم أسن مني. متفق عليه.[١٨]

ولم يكن السلف غافلين عن العلوم الأخرى المفيدة كالأنساب والشعر؛ فقد أرسل معاوية رضي الله عنه إلى دغفل فسأله عن العربية وعن أنساب العرب، وسأله عن النجوم فإذا رجل عالم. قال: يا دغفل! من أين حفظت هذا؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول وإنَّ آفة العلم النسيان. قال: انطلق بين يديَّ (يعني ابنه يزيد) فعلمه العربية وأنساب قريش والنجوم وأنساب الناس. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال.

ولما دفع عبد الملك وُلْده إلى الشعبي يؤدبهم قال: علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، وحسِّن شعورهم تشتد رقابهم، وجالس بهم عِلية الرجال يناقضوهم الكلام. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال.

قال ابن القيم: إذا رأى الصبي وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح وأنه لا نفاذ له من العلم ولم يخلق له، ومكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها فإنه أنفع له وللمسلمين[١٩].

- ومن الأمور التي ينبغي أن يُعلَّمها الصبي: الجرأة على طرح أفكاره، ويكون هذا بمجالسة العقلاء الكبار ليكبر عقله وينضج تفكيره ويلقّح فهمه، ويحمله على محاكاة الكبار؛ فمن الخطأ أن يمنع الصغير من حضور مجالس أهل الخبرة والتجربة، وقد مر عمرو بن العاص رضي الله عنه على حلقة من قريش فقال: ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة؟ لا تفعلوا! أوسعوا لهم في المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم إياه؛ فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم[٢٠]، بل كان ابن شهاب الزهري يشجع الصغار ويقول: لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يتبع حدة عقولهم. رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله. وكان الصحابة يصحبون أولادهم إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، فعن قُرَّة بن إياس رضي الله عنه قَال: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا جَلَسَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ فَيُقْعِدُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ. رواه النسائي وصححه الألباني.

وفي حضور الناشئ مجالس من يكبرونه سناً و قدراً تكريم له ينبغي ألا يعدِم التأدّب والتخلّق فيه، ومن أدبه في مجلسهم أن لا يُطاولهم أو يتعالم بينهم، أو يتقدّمهم بحديث أو كلام. روى مسلم في صحيحه أن

---

[١٨] الآداب الشرعية، لابن مفلح

[١٩] تحفة المولود بأحكام المولود.

[٢٠] شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي.

سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قال: لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم غُلاَماً فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ أَنَّ هَا هُنَا رِجَالاً هُمْ أَسَنُّ مِنِّي.

- الاعتداد به رجلاً ولو صغر سنه، فيُشعر بمكانته، ويؤبه برأيه، ويسمع لقوله، ويتجنب إهانته أو احتقار أفكاره، بل يجب تشجيعه على المشاركة، ورفع قدره وإشعاره بأهميته، ومن ذلك التكنية وهي مناداة الصغير بأبي فلان أو الصغيرة بأمّ فلان، وهو ينمّي الإحساس بالمسئولية، ويُشعر الطّفل بقيمته وأهميته، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكنّي الصّغار؛ كما روى البخاري عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ، قَالَ: أَحسبُهُ فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: "يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟(طائر صغير كان يلعب به)". وروى البخاري عَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدٍ قالت: أُتِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ صَغِيرَة (ثوب من حرير) فَقَالَ: "مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ؟" فَسَكَتَ الْقَوْمُ، قَالَ: "ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ"، فَأُتِيَ بِهَا تُحْمَلُ (أي أنها طفلة صغيرة) فَأَخَذَ الْخَمِيصَةَ بِيَدِهِ فَأَلْبَسَهَا، وَقَالَ: "أَبْلِي وَأَخْلِقِي، يَا أُمَّ خَالِدٍ، هَذَا سَنَاه (يعني حسن بِالْحَبَشِيَّةِ)"، وهذا في المقابل يعزز الأمومة والأنوثة في البنت، الذي لا يقل أهمية في تناول موضوعها عن الرجولة. ومن ذلك تشميت الصغير إذا عطس، قال ابن مفلح: روى عبد الله بن أحمد: عن الحسن أنه سئل عن الصبي الصغير يعطس؟ قال: يقال له: بورك فيك. وقال صاحب النظم: إن عطس صبي عُلِّم الحمد لله، ثم قيل له: يرحمك الله، أو بورك فيك ونحوه، ويعلم الرد. وإن كان طفلاً حمد الله وليه أو من حضره، وقيل له نحو ذلك. ومال ابن مفلح إلى أنه لا يقال عنه: الحمد لله؛ لأنه غير مكلف، ولأن العبادة البدنية المحضة لا تُفعل عن الحي، كما أنه لم يُنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه استحباب ذلك مع توافر الهمم على نقله[٢١]. ومن حق الصغير أن يُسَلَّم عليه؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم – فمر على صبيان فسلم عليهم. رواه الترمذي. ومن ذلك أن يُستأذن عليه عند الدخول؛ فقد قال جابر رضي الله عنه: يستأذن الرجل على ولده وأمه وإن كانت عجوزاً، وأخيه وأخته وأبيه. رواه البخاري في الأدب المفرد. ولا يقدَّم عليهم في حقهم إلا بإذنهم؛ فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتي بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: "أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟" فقال الغلام: والله يا رسول الله! لا أؤثر بنصيبي منك أحداً، فتلَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده" رواه البخاري ومسلم. ومن ذلك أنه لا

[٢١] الآداب الشرعية، لابن مفلح.

يجوز أن يُكذَب عليهم؛ فعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا وأنا صبي، قال: فذهبت أخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله! تعالَ أُعطك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما أردتِ أن تعطيه؟" قالت: تمراً، فقال: "أما إنك لو لم تفعلي كُتِبَتْ عليك كذبة" رواه أحمد وأبو داود، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له" رواه الحاكم.

- تدريبه على العبادات وفعل الخيرات (متى كان عمره مناسباً)، روى ابن خزيمة في صحيحه والترمذي وأبو داود بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعي إلى طعام، فأكل منه ثم قال: "قوموا فلنصل بكم". قال أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس، فنصحته بالماء، فقام عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصففت عليه أنا واليتيم وراءه، والعجوز من ورائنا، فصلى بنا ركعتين ثم انصرف. و ليس المقصود تعويدهم على صلاة الجماعة في البيت إلا أن يكون ذلك في النوافل، كالركعتين اللتين أم النبي صلى الله عليه وسلّم فيهما الغلامين والمرأة، وهذا هدي نبوي شريف، ومن هديه عليه الصلاة والسلام أيضاً ربط الأبناء بالمساجد وتوجيههم إليها، بل كان يذهب أكثر من ذلك فيتجوز في صلاته مراعاة لحال الصبية الذين تصطحبهم أمهاتهم إلى المسجد، روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: " إِنِّي لأَقُومُ فِي الصَّلاَةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ".

ولذا من اعتاد رؤية المصلي يصلي، ويرى المسجد وعُمّاره منذ صغره، توطّنها واعتادها وأحبها في كبره، روى الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود قال: حافظوا على أبنائكم في الصلاة وعودوهم الخير؛ فإن الخير عادة. و لهذا القول ما يؤيده في السنّة فقد روى ابن ماجة بإسناد صحيح عن مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: "الْخَيْرُ عَادَةٌ وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ". وليس هذا مقصوراً على عبادة الصلاة، فأي عبادة بمقدور المربي أن يؤسسها في نفس الرجل القادم منذ صغره، لا سيما أركان الإسلام، روى ابن أبي الدنيا في كتاب العيال: كان عروة يأمر بنيه بالصيام إذا أطاقوه وبالصلاة إذا عقلوا.

بل ولا مانع من إعطائهم الهدايا التشجيعية؛ روى الشيخان عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ: أَرْسَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَى قُرَى الأَنْصَارِ: "مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِراً فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ

صَائِماً فَلْيَصُمْ ". قَالَتْ: فَكُنَّا نَصُومُهُ بَعْدُ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا، وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ أَعْطَيْنَاهُ ذَاكَ، حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الإِفْطَارِ. قال ابن حجر في الفتح: في الحديث حجة على مشروعيّة تمرين الصبيان على الصيام.

وروت عائشة رضي الله عنها أنهم كانوا يأخذون الصبيان من الكُتَّاب ليقوموا بهم في رمضان، ويرغبوهم في ذلك عن طريق الأطعمة الشهية. رواه البيهقي في الكبرى، وكان بعض السلف يعطون الأطفال الهدايا التشجيعية على أداء الصلاة[٢٢]. روى النضر بن شميل قال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: قال لي أبي: يا بنيَّ! اطلب الحديث؛ فكلما سمعت حديثاً وحفظته فلك درهم. فطلبت الحديث على هذا[٢٣].

وروى مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَقِيَ رَكْباً بِالرَّوْحَاءِ فَقَالَ: "مَنِ الْقَوْمُ؟". قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ. فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ قَالَ: "رَسُولُ اللَّهِ". فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ أَلِهَذَا حَجٌّ قَالَ: "نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ". فانظر مُذ متى تعلموا الصلاة والصيام وكذلك الحج، هذا لعمري من أنفس ما يصيغ الرجال، وإذا أنعمت النظر في الطرف الآخر لجيل لا يعرف المسجد ولا الصوم ولا عمرة أو حجاً حتى يبلغ، فأنى له أن يبلغ مبلغ أصحابه، وإن كان العمر واحداً؟!

- التربية على العزَّة والشجاعة، وتحديثه عن أمجاد المسلمين، ومواطن عزهم وانتصاراتهم، جاء في البخاري أن الزبير بن العوام رضي الله عنه خرج بابنه عَبْد اللَّهِ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ فَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ وَوَكَّلَ بِهِ رَجُلاً. ومن ذلك تعليم الرياضات الرجولية، كالرماية والسباحة وركوب الخيل، وقد جاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ أَنْ عَلِّمُوا غِلْمَانَكُمْ الْعَوْمَ. وفي البخاري عن سَلَمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَنَاضَلُونَ بِالسُّوقِ، فَقَالَ: "ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلاَنٍ لِأَحَدِ الفَرِيقَيْنِ"، فَأَمْسَكُوا بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ: "مَا لَهُمْ"، قَالُوا: وَكَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَ بَنِي فُلاَنٍ؟ قَالَ: "ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ". وعند مسلم عن أبي علي ثمامة بن شفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: "{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي". وورد في فضل الخيل ما رواه البخاري ومسلم عن عروة البارقي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة. وورد في تعلم السباحة ما رواه الطبراني والنسائي وصحح الألباني إسناده كما في صحيح الجامع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل شيء ليس فيه

---

[٢٢] الطب الروحاني، لابن الجوزي.

[٢٣] شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي.

ذكر الله فهو لهو ولعب إلا أربع: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشيه بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة".

- تهيئته لما ينبغي أن يكون عليه، أو يصير عليه في كبره كالقيادة والريادة والإمامة، وكفى دليلاً على ذلك تأمير رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد ذي السبعة عشر ربيعاً على جيش يغزو الروم في بلاد الشام، وفيه كبار الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين، وبعثه معاذ بن جبل رضي الله عنه أميراً على اليمن وهو في التاسعة عشرة من العمر. ومن هذا القبيل ما يدل عليه ما رواه البخاريّ في صحيحه عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه أنه قال: لَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلاَمِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِى قومي بِإِسْلاَمِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم حَقًّا فَقَالَ: " صَلُّوا صَلاَةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآناً". فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآناً مِنِّى، لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ وَكَانَتْ عَلَىَّ بُرْدَةٌ، كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصَتْ عَنِّى، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَىِّ أَلاَ تُغَطُّوا عَنَّا اسْتَ قَارِئِكُمْ. فَاشْتَرَوْا فَقَطَعُوا لِي قَمِيصاً، فَمَا فَرِحْتُ بِشَيءٍ فَرَحِى بِذَلِكَ الْقَمِيصِ.

فانظر كيف حفظ من أفواه الركبان قسطاً من كتاب الله فاق ما حفظه بنو قومه رغم تلقيهم عن خير الخلق صلى الله عليه وسلّم، و الأغرب من ذلك أنّه تصدّر لإمامة قومه في الصلاة رغم حداثة سنّه إلى حدّ لا يُعاب عليه فيه انحسار ثوبه عن سوأته.

ومن ذلك استشارته وأخذ رأيه واستكتامه الأسرار، روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قَال: "أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ قَالَ: "فَسَلَّمَ عَلَيْنَا فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: "مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: "بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم لِحَاجَةٍ"، قَالَتْ: "مَا حَاجَتُهُ؟" قُلْتُ: "إِنَّهَا سِرٌّ"، قَالَتْ: "لا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم أَحَدًا".

- تعليم الصبي الاعتماد على النفس بتعلم صنعة أو تجارة أمر مهم ومن ذلك منعه من الكسل وتلكم من أهم واجبات الولي؛ فقد روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى غلاماً لا يحسن سلخ الشاة، فقال له: "تنحَّ حتى أريك، فأدخل يده بين الجلد واللحم فدحس بها حتى توارت إلى الإبط، ثم مضى"، ومن ذلك التقليل أحيانًا من حياة التّرف، وتجنيبه أسباب الفساد كمجالس اللهو والباطل والغناء، ومجاميع النساء قدر الإمكان، فإنها تؤثر في خلقه وسلوكه، بأخلاق منافية للرّجولة ومناقضة للجِد، ومن

ذلك تعويده على اللباس اللائق الذي لا يجعله تبعاً أو متشبهاً، فمن شبّ على شيء شاب عليه، وقد قال عمر رضي الله عنه فيما رواه مسلم عن أبي عثمان النهدي(عبدالرحمن بن ملّ) قال كتب إلينا عمر ونحن بأذربيجان ياعتبة بن فرقد:..وإياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير. وفي سنن أبي داود عن أبي أمامة قال ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عنده الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا تسمعون ألا تسمعون إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان يعني التقحل". وصححه الشيخ الألباني. قال المناوي في فيض القدير: (البذاذة) بفتح الموحدة وذالين معجمتين قال الراوي: يعني التقحل بالقاف وحاء مهملة رثاثة الهيئة وترك الترفه وإدامة التزين والتنعم في البدن والملبس إيثارا للخمول بين الناس (من الإيمان) أي من أخلاق أهل الإيمان إن قصد به تواضعا وزهدا وكفا للنفس عن الفخر والتكبر لا إن قصد إظهار الفقر وصيانة المال، وإلا فليس من الإيمان من عرض النعمة للكفران وأعرض عن شكر المنعم المنان، فالحسن والقبح في أشباه هذا بحسب قصد القائم بها، إنما الأعمال بالنيات. انتهى. وفي مسند الإمام أحمد أنه صلى الله عليه وسلم لما أرسل معاذ بن جبل قال له: "إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين". وصححه الشيخ الألباني. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن ما حرم الله على الرجل فعله حرم عليه أن يُمكِن منه الصغير، وقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثوباً من حرير على صبي للزبير فمزقه، وقال: لا تُلبِسوهم الحرير، ومزق ابن مسعود ـــرضي الله عنه ـــ قميصاً من حرير على أحد أولاده، وقال: قل لأمك تكسوك غير هذا)[٢٤].

وإن شر ما تُصابُ به الحياة هو الخروج على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وذلك بتخلفِ الرجال واسترجال المرأة. فأين الرجولة فيمن يتمايل في حركاته، ويطيل شعره، ويضع القلادة على رقبته، ويتطأطأ في مشيته، بل قد يرقص كما ترقص النساء؟ إن هذه السلوكيات نواةُ شرٍ ونذير فسادٍ لكل المجتمع؛ لأنها تحكي مسخاً وانصرافاً عن الفطرة، وانهزاميةً وانحطاطاً على حسابِ أخلاق الأمة، ولهذا لعن الرسول صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال". رواه البخاري، ولعن النبي صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، وقال: "أخرجوهم من بيوتكم" رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

---

[٢٤] مجموع الفتاوى.

- تعزيز الممارسات الإيجابية لتصبح ملكة: قال ابن القيم: (كثرة المزاولات تعطي الملكات، فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة)[٢٥]، والملكة في المعجم الوسيط تعني: صفةٌ راسخةٌ في النفس، أو هي استعدادٌ عقليٌّ خاصٌّ لتناول أَعمالٍ معيَّنة بحذقٍ ومهارة.

ومن حيث الاصطلاح، فالملكة هي التي نحصل عليها بالمران والدربة والتعلم والصقل والمعاناة والتكرار، حتى تصبح صفة راسخة في النفس. ومن جهة أخرى، قد تدل على المهارة والصناعة والجودة والكفاءة. ومن المعلوم أن الملكات هي تلك القدرات التي يكتسبها الإنسان وراثيا أو تجريبيا، وينتج من خلالها تحصيل مجموعة من المعارف والمهارات والمواقف والميول بمهارة وحذق ودراية. زد على ذلك، أن العقل مجرد ملكة من الملكات التي يستخدمها الإنسان على مستوى التفكير إلى جانب الخيال، والذاكرة، والمنطق، والتجريد، والتخييل. قال الجرجاني: الملكة هي صفة راسخة في النفس. فالنفس تحصل لها هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال؛ فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال، فتصير ملكة. وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقا [٢٦]. ويعني هذا أن الملكة حالة مستمرة وبطيئة راسخة في نفس الإنسان، وتنبني على أفعال مكررة إلى أن تتحول الملكة إلى عادة وخلق وصناعة. ويذكر ابن خلدون في كتابه (المقدمة) مجموعة من الملكات الرئيسة، مثل: ملكة الحفظ، وملكة الفهم، وملكة الذوق. وتصقل هذه الملكات باللغة والبيان والبلاغة والنحو وعلوم الآداب حفظا وفهما. ومن هنا، لابد أن تترسخ الملكات في نفوس المتعلمين بالمران والدربة والمجاهدة، حتى تترسخ في نفوسهم، وتصبح مطبوعة وفطرية وسليقية.

ومن ذلك التنبه للعادات والممارسات السلبية كفضول الطعام والشراب والنوم، وكثرة الجلوس على الأجهزة بلا ضوابط أو تقنين، فالعادات تسيطر على صاحبها حتى لا يقوى على منعها، وإن اعتياد المرء عادة قبيحة يحوله إلى أسير لها، لا يملك فكاكها، إنها تقعد به عن مصالح دينه وتعوقه عن مصالح دنياه، وكم من الشباب الذين يؤمل عليهم أهلهم وتؤمل عليهم مجتمعاتهم من قعد به كسله أو اعتياده على نمط في الحياة فعاقه ذلك عن أن يحصل علماً ينفعه في دينه ودنياه أو يكسب قوتاً يحميه من تكفف الناس والتطلع إلى ما في أيديهم. وما ذاك إلا بإهمال نمو تلك العادات والممارسات السلبية منذ الصغر ظناً من المربي أنها تتلاشى مع الوقت، وفي الحقيقة أنها تزيد وتستفحل، فحَريّ بالمربي الغيور أن ينشّئهم منذ

---

[٢٥] مفتاح دار السعادة.

[٢٦] كتاب التعريفات، للجرجاني.

الصغر وطراوة النفوس على التخلي عن العادة السيئة والبعد عن الاستسلام لها حتى لا تتحول إلى سيد يسترقّ صاحبه.

- ومن المهمات التأديب والعقاب عند الخطأ؛ لأن ترك ذلك يفسد الأخلاق، ويستمرئ العادات المشينة، ولا يستلزم ذلك الضرب، أو التبكيت والإهانة، وإنما أمور يدركها المربي العاقل، إذ تكفي نظرة، أو صمت مؤقت، في تعديل سلوك وتقويم خُلق، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خُلُقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني نبي الله صلى الله عليه وسلم، قال: فخرجت حتى أمرَّ على الصبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قابض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك فقال: "يا أنيس! اذهب حيث أمرتك"، قلت: نعم! أنا أذهب يا رسول الله. رواه أبو داود. والضرب وسيلة تقويم وقبلها وسائل، وقد ورد الأمر بتعليق العصا في البيت[٢٧]. وروى أحمد في مسنده بإسناد حسن عَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ وذكر منها: "وَأَنْفِقْ عَلَى عِيَالِكَ مِنْ طَوْلِكَ وَلاَ تَرْفَعْ عَنْهُمْ عَصَاكَ أَدَباً وَأَخِفْهُمْ فِى اللَّهِ". وعن عائشة رضي الله عنها قالت في أدب اليتيم: إني لأضرب اليتيم حتى ينبسط(أي: يعتدل). رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال. وقال الإمام أحمد: اليتيم يؤدب ويضرب ضرباً خفيفاً[٢٨]. وكان عمر بن عبد العزيز يكتب للأمصار: لا يقرن المعلم فوق ثلاث؛ فإنها مخافة للغلام (يعني لا يجمع ثلاث ضربات). رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال، وسئل الإمام أحمد عن ضرب المعلم الصبيان، فقال: على قدر ذنوبهم، ويتوقى بجهده الضرب، وإن كان صغيراً لا يعقل فلا يضربه[٢٩]. وليعلم أن الأمور لا تؤتى غلاباً، وإنما التدرج مطلوب في التقويم؛ فقد نُقل عن سعيد بن جبير الحث على التدرج في أخذ الطفل بالجد، وهذا يتمشى مع الحكمة التي جاءت بها الشريعة، وطبيعة النفس الإنسانية التي تستثقل أخذها بالعزيمة بلا تدرج.

- وإن تعليم الرجولة وتعزيز معانيها في نفس الناشئة لا يتعارض مع العطف عليهم ورحمتهم واللعب معهم، بل وأن يحرص المربي على أن يعيشوا طفولتهم إن كانوا أطفالاً بما تستلزم، حتى لا يكون الحرمان فتكون ردة الفعل العكسية، وإنما التربية بالتدرج، والرياضة، وكما قيل من رأى علو المنزلة فلا ينسى الدرج، جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قبَّل الحسن وعنده الأقرع بن

---

[٢٧] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

[٢٨] الآداب الشرعية، لابن مفلح.

[٢٩] الآداب الشرعية، لابن مفلح.

حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: "من لا يَرحم لا يُرحم" رواه الشيخان. وقال بريدة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه وقال: "صدق الله: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن: ١٥]، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما". رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وحسنه الأرناؤوط.

ومن ذلك ممازحتهم وتفريحهم، فقد كان صلى الله عليه وسلم يمازح الصغار؛ فقد قال لأحدهم: "يا ذا الأذنين" رواه أبو داود، ومجَّ صلى الله عليه وسلم الماء في وجه محمود بن الربيع وهو ابن خمس سنين. رواه البخاري، وقال لأحدهم: "يا أبا عمير ما فعل النغير" رواه البخاري.

ومن ذلك إردافهم على الدابة؛ وقس عليها في عصرنا ما يليق بها، فقد قال عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر تُلُقِّيَ بالصبيان من أهل بيته. قال: وإنه قدم مرة من سفره فسيق بي إليه فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة إما حسن وإما حسين فأردفه خلفه. قال: فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة. رواه مسلم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة استقبله أغيلمة بني عبد المطلب فحمل واحداً بين يديه وآخر خلفه. رواه البخاري.

ومن لك حفزهم للعب، وإشباع حاجاتهم كأطفال، مرّ ابن عمر رضي الله عنهما في طريق فرأى صبياناً يلعبون فأعطاهم درهمين. رواه البخاري في الأدب المفرد. وروى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه دخل مرة المسجد يوم الجمعة، فوجد غلاماً، فقال له: يا غلام! اذهب العب! قال: إنما جئت إلى المسجد. قال له: يا غلام! اذهب العب! قال: إنما جئت إلى المسجد. قال: فتقعد حتى يخرج الإمام؟ قال: نعم. وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان من أفكه الناس مع صبي. رواه البخاري في الأدب المفرد. ونقل ابن مفلح عن ابن عقيل أنه قال: (العاقل إن خلا بأطفاله خرج بصورة طفل، ويهجر الجد في ذلك الوقت)[٣٠]. وعن الحسن أنه دخل منزله وصبيان يلعبون فوق البيت ومعه عبد الله ابنه فنهاهم فقال الحسن: دعهم فإن اللعب ربيعهم. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال.

---

[٣٠] الآداب الشرعية، لابن مفلح.

- وعلى رأس عوامل التربية والإصلاح الاستعانة بالله بدعائه واستمطار توفيقه، وهذا هو هدي الأنبياء والصالحين؛ فعباد الرحمن يقولون: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} [الفرقان: ٧٤]، وزكريا يقول: {فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا} [مريم: ٥]، وإبراهيم يقول: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} [الصافات: ١٠٠]، ويدعو لهم بصلاح العقيدة: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥]، ويدعو لهم بأن يكونوا مقيمين للصلاة: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي} [إبراهيم: ٤٠]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "اللهم علمه الكتاب" وفي رواية: "اللهم علمه الحكمة" وفي أخرى: "اللهم فقهه في الدين" رواه البخاري.

- أخيراً..

هؤلاء الرجال الذين مر علينا شيء من ذكرهم، كانوا حصيلة تربية وجهد تربوي رباني، وليسوا ثمرة معجزة أو قدر فجائي، أسسهم النبي صلى الله عليه وسلم ورباهم وأحسن تربيتهم، فكانت هذه النتيجة هي نتيجة عمل ودأب تربوي وعلى التعليم والتزكية بحرصٍ وتفانٍ على مر ثلاث وعشرين سنة من الدعوة والصبر، ولذا نحن مطالبون بتربية تؤهل لما يتطلبه ديننا الحنيف وشريعتنا المهيمنة، التربية التي تنشئ الرجال، أن يُسار بهؤلاء الشبيبة إلى مجالس الرجال، إلى حِلق الذكر، إلى المجالس الجادة التي تربي على معالي الأمور لا على سفاسفها. نكلّفهم ببعض الأعمال التي تحملهم على المسئوليات المبكرة لينشؤوا أصحاب همم، نقصّ عليهم سِيَر الأولين، يتعرفوا على معاذ بن جبل وأبي عبيدة عامر بن الجراح، ويتعرفوا على القعقاع بن عمرو.

من واجب الأبناء على الأب كل ذلك، وأكثر، تربية وتعليم وتزكية، وصبر واصطبار، لتسمو الرجولة، وتبقى أعيانها، لا أن نكتفي بآثارها، وقد قيل:

وينشَأُ ناشئُ الفتيانِ منا *** على ما كان عوَّدَه أبوه

اللهم وفقنا وسددنا، لأن نكون كما تحب، ونُعين على ما تحب.

وكتبه

سعيد بن محمد آل ثابت

المحتويات

مقدمة في مفهوم الرجولة: ١

تأملات في القرون المفضلة: ٢

تساؤلات عن معايير الرجولة: ٤

فمن هم الرجال إذن (معايير الرجولة)؟..... ٧

التربية على الرجولة: ١٦

هذا الكتاب منشور في

I am Sorry !!!!!